أصل اللغة الإنسانية وتطورها *

الفرد والفصيلة

بارتيل مالمبارغ

" يستغرب الكثيرون عندما نؤكد أن المشكلة الخاصة بأصل اللغة ليست مشكلة لسانية، مع أن الأمر كذلك في واقع الأمر. وقد تاه الكثيرون وهم يعالجون هذه القضية منذ مائة سنة، لأنهم لم يأخذوا هذه الحقيقة في الحسبان. ولقد كان موطن الخطأ عندهم أنهم تناولوا القضية من زاوية لسانية، كما لو أن أصل اللغة يمكن أن يمتزج بأصل الألسنة.

يدرس اللسانيون الألسنة المنطوقة والمكتوبة؛ إنهم يتتبعون تاريخها اعتمادا على أقدم الوثائق المكتشفة لحد الآن. ولكنهم سيظلون مع ذلك ضمن دائرة ألسنة متطورة مهما امتد توغلهم في التاريخ. إنها ألسنة تملك ماضيا معتبرا لا نعرف عنه أي شيء. إن الفكرة القائلة بأننا من خلال مقارنة الألسنة الموجودة حاليا سنصل إلى إعادة بناء" شكل لغوي" بدائي هي فكرة خرافية. إنها خرافة داعبت أحلام مؤسسي النحو المقارن، وقد تم التخلي عنها منذ زمن بعيد (1).

ولقد كان موقف اللسانيات الرسمية، في الفترة التي كتب فيها اللساني الفرنسي الشهير الفقرة التي أحلنا عليها أعلاه - رغم وجود بعض الرواد أمثال ياسبرسن - هو ذاك الذي يرى أن أي نقاش حول أصل اللغة يجب أن يُستبعد من ميدان مجتمع اللسانيات في باريس. وبديهي أن هذا الموقف، استنادا إلى المبادئ والطرق المستعملة، كان موقفا سليما. فالطرق التاريخية والمقارنة لا تمكننا من العودة إلى المراحل الأولى للغات والألسنة. إن المرحلة التي تغطيها الوثائق وأشكال إعادة البناء لا تشكل سوى

جزئية بسيطة من تاريخ الإنسان المتكلم، ولا تعكس أي تطور أساسي للبنية. إن كل الألسنة المعروفة - الحية منها أو الميتة- تملك درجة التطور نفسه - ودرجة القصور أيضا- سواء كانت محملة بثقافة كبيرة، أو كانت فقط لسان قبائل نسمها بالبدائية. يكشف لنا تاريخ الإنسان الناطق، كما يمكن تتبعه أو إعادة بنائه، عن تغيرات متنوعة، ولكنه لا يقول أي شيء عن التطور الأصلي الخاص باشتغاله.

ولكن اللسانيات الحديثة تتوفر على مصادر أخرى غير تلك التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر، وهي مصادر قد تمكننا من فهم السيرورة الطويلة بدءا من الرموز الشاملة التي استعملتها حيوانات كثيرة- خاصة عند تلك المتطورة من فصيلة الرئيسات (الشامبانزي مثلا)، وانتهاء بالعلامات ذات التمفصل المزدوج. فليس التاريخ – الذي لا يمكن تحديد مداه- هو من يساعدنا في ذلك، بل تحليل الأسس العامة، وهي أسس بسيطة وبدائية للغاتنا الحالية، ودراسة البنية الاولية والبنيات الأكثر تطورا (عند الطفل) أو البنيات غير المنظمة (العي)، هي ما يقودنا إلى تحديد تنظيم تراتبي يمكن أن يبعبر عنه من خلال مقاطع زمنية. وهكذا سنرى لاحقا ما يمكن أن يظل ثابتا في ما قاله فوندرياس في ضوء العلوم المعاصرة، وما لا يصمد أمام النقد.

" وبالإضافة إلى ذلك، فإن العلاقة بين العلامة والشيء الدالة عليه، بين الشكل اللساني ومادة التمثيل، غير مرتبطة برباط عرضي. وقد اعتقد الناس لمدة طويلة أن الواقعة البدائية للغة كانت تكمن في إعطاء أسماء للأشياء، أي خلق مجموعة من المفردات، وهي الفكرة التي سبق أن عبر عنها لوكريس في البيت التالي:

utilitas expressit nomina rerum

(الحاجة هي التي دفعت الناس إلى خلق الأصوات)

حيث كان يعتبر، عن حق، أن اللغة هي إرضاء لحاجة. ولقد حاول في القرن الثامن عشر الرئيس دو بروس في فرنسا تفسير الشكل الخارجي للكلمات من خلال المعنى الذي تعبر عنه هذه الكلمات. لقد كان الهدف من أبحاثه هو خلق ما يشبه

الرمزية الخاصة بالمعاني تكون هي التي استعملها الإنسان الأول من أجل خلق كلمات. إن عملا من هذا النوع يثير السخرية حاليا. فما هو أساسي ليس كوننا سمينا الأشياء من خلال هذه الكلمة أو تلك، بل إننا منحنا الكلمة - بما يشبه الاتفاق الضمني بين المتكلمين- قيمة ائتمانية، إننا تعاملنا مع الكلمة باعتبارها موضوعا للتبادل، تماما كما حللنا الأوراق النقدية محل التبادل العيني "(2).

******

لقد سبق أن عبرنا عن فكرة مفادها أن للرمز الشامل امتدادا أوسع من ذاك الذي تتمتع به العلامة ذات التمفصل المزدوج، وهي الخاصية الوحيدة للغة الإنسانية. ولقد قلنا منذ البداية أن التعريف المبني انطلاقا من هذا التصور هو تعريف اعتباطي، ولكنه التعريف الممكن، إذا كنا نود الوصول إلى إقامة تصنيف ملائم لكل الوسائل الممكنة للتمثيل والتواصل. هناك الكثير من الحيوانات التي تعرف شكلا متطورا من أشكال التواصل، بل هناك بعض الرئيسيات يملكن " لغة" غنية في التمييزات وتشهد على وجود ملكة متطورة للتجريد والتصنيف. ولن نتوقف عند هذه النقطة طويلا، ولقد حاولنا في مناسبة أخرى البرهنة إلى أي حد يمكن للغتنا أن تشتغل بالقوة الرمزية نفسها التي يقتضيها الحفاظ - لغايات تعبيرية - على النسق الرمزي الذي يُعد من الناحية البنيوية بسيطا، ويشتغل بطريقة تتجاوز مقاطع العلامات وتتم من خلالها. لا وجود لتواصل إنساني مبني فقط على تجميع اعتباطي للعلامات المعللة. إن المراوحة بين التعليل والاعتباطية، بين الرمزية والدلالة، تعد، على النقيض من ذلك، خاصية من خاصيات تواصلنا(3).

تتقابل الرمزية والدلالة في تصورنا إذاً، باعتبارهما وظيفتين تتميزان عن بعضهما البعض، من خلال اختلافهما المعقد. إن أساس غنى اللغة الإنسانية هو هذا التعقيد بالذات الخاص ببنيتهما، وخاصة ما يتعلق بالتمفصل الثاني الذي يضمن وحده خلق عدد لا متناه من العلامات. إن هذا التمييز بين الرموز والعلامات هو تمييز وظيفي. ومن جهة ثانية، يُشكل الإنسان، باعتباره حلقة بالغة التعقيد من الناحية

البيولوجية، اذ يمثل، حسب النظرية التطورية، حالة تطور انطلقت من عناصر بسيطة من خلال تنويع امتد من الأصول الأولى للحياة العضوية إلى الفصائل الأكثر تطورا والأكثر تمايزا. وسيكون من العبث ألا نرى في هذا النظام التراتبي، الخاص بالوسائل التواصلية، أيضا نظاما زمنيا. لقد كان على أسلافنا غير الإنسانيين - كيفما كان موقعهم في علاقاتهم بالرئيسات والكائنات الشبيهة بالإنسان -أن ينتقلوا لمدة طويلة من تطورهم من الرمز البسيط - وهو الرمز الوحيد الذي يعرفه الشامبانزي - إلى العلامة الأكثر تطورا. بعبارة أخرى، كان عليهم إدراج الرمز بجانب العلامة، وهو ما يقابل الانتقال من الكائن ما قبل الإنسان إلى الإنسان . يتعلق الأمر إذاً بالنسبة للذي يحاول الإسهام في دراسة المشكلة الأبدية لأصل اللغة الوصول إلى بلورة نظرية تعالج هذا الانتقال بالذات. أو بعبارة دقيقة، البحث عن نظرية تنطلق من معرفتنا للميكانيزمات الحالية للغة من أجل وصف كيف استطاع التمفصل المزدوج أن يصبح جزءا من التعليل الرمزي مغيرا بذلك نمط اشتغاله.

إنطلاقا من هذا الأساس، لا ننوي التقليل من أهمية العوامل النفسية والاجتماعية والعصبية وغيرها في تطور اللغة، ولكننا متأكدون أن كل هذه العوامل - مجتمعة أو مفصولة- لم تكن كافية لنمو لغة مطواعة لو لم تكن الوظيفة الدلالية وكذا ميكانيزمات التمفصل المزدوج قد ظهرا بعد، بهذا الشكل أو ذاك. إن القول بأن كل ما يتعلق بالتطور الإنساني منذ المرحلة الحيوانية هو نتاج اكتشاف الميكانيزمات اللسانية، أو العكس إن اللغة هي نتاج هذا التطور، معناه التغاضي عن كوننا نتحدث عن مظهرين للظاهرة نفسها. إن حالة الطفل الصغير هي الحالة ذاتها. ولن نتوقف طويلا عند هذه التفاصيل.

إننا لا نعيش في تلك المرحلة التي كان يُحرَّم فيها على الباحثين الجادين البحث في أصول اللغة. ولقد أشرنا في مكان آخر إلى أن أصل اللغة هو مشكل بنيوي. وهذا يعني أننا كلما عمقنا من دراستنا لبنية اللغة ولميكانيزماتها ، اقتربنا أكثر فأكثر من إيجاد حل للغز نشأة اللغة (4).

*****

لا تسمح لنا أقدم أشكال اللغة الإنسانية المعروفة(النصوص القديمة والكتابات القديمة التي تم تأويلها) كما هو معلوم، بالخروج بأية خلاصة تخص المراحل المفترض أنها أكثر بدائية من اللغة الإنسانية. إن هذه الإشكالية العتيقة ليست بأي شكل من الأشكال أكثر بدائية، وليست أقل تطورا من لغاتنا، وهو ما يصدق على تلك التي حاول المقارنون بناءها. ففي الآلاف الأربعة أو الخمسة التي يغطيها تاريخ اللغات المعروفة لم يلحق بهذه اللغات أي تغيير، سواء تعلق الأمر بالمبدأ أو تعلق بميكانيزمات اشتغالها. يمثل هذا التاريخ في واقع الأمر مرحلة بسيطة في تاريخ الإنسان المتكلم الذي يقاس بعشرات الآلاف من السنين (ثلاثون ، أربعون، خمسون، أو يزيد عن ذلك، لا أحد يستطيع تحديد ذلك) .

لا يمتلك الصوت الأول للرضيع (صرخة الولادة) أي طابع واع، ولا يمكن أن يشتغل ضمن أي سجل تواصلي، وهو ما يصدق على حركات جسده. وشيئا فشيئا يتحول الصراخ إلى تعبير عن حاجة (جوع - ألم) ويقوم محيطه بتأويله باعتباره علامة هو الذي لم يكن أبدا قصديا في بدايته. يتحول الصمت - الدرجة الصفر - وبعد ذلك الثغثغة - كما سيكون الشأن لاحقا مع الابتسامة غير القصدية للرضيع- إلى رموز دالة على الرضا، أو يؤولها المحيط وفق هذه الغاية. يتعلق الأمر بالبدايات الأولى للسيرورة التواصلية، التي تقتضي تأويلا بسيطا لظواهر فسيولوجية يتم بثها بشكل آلي. وحين يصبح الطفل واعيا بصوته وإيماءاته، وواعيا أيضا بالروابط الموجودة بين هذه الإيماءات ورد فعل المحيط، يتحقق اللقاء القصدي الأول بينه وبين الذين يعالجونه. سأترك جانبا قضية معرفة هل بعض الاختلافات في الصراخ مرتبطة بغايات محددة عند الطفل. وسيظل الصراخ - الذي يتحول عند الطفل الأكثر نضجا أولا، وعند الراشد ثانيا، إلى بكاء ونواح ودموع (وهي الحالات الغائبة في المراحل الأولى) - طوال حياة الفرد أداة تعبيرية من الطبيعة نفسها حاملة للانفعالات والأحاسيس. ولم يُدرج

أبدا ضمن أي وسيلة تعبيرية منظمة. ولا يدخل ضمن الممكنات الصوتية المستعملة من أجل إنشاء لغة منظمة .

وعلى النقيض من ذلك، فإن الثغثغة والتصويتات الأخرى للرضيع- التي تعني أن الحركات الصوتية للهواء الذي يخرج من الصدر متراكبة مع نبر الحنجرة تشكل تمارين للأعضاء ستستعمل لاحقا من خلال مظاهرهما الصوتية السمعية داخل صوتية ممفصلة. إن هذه الحركات ليست ثابتة، ولا علاقة لمظاهرها الصوتية السمعية المتنوعة بقصدية تميزية. إن الثغثغة تنقل في أحسن الحالات أخبارا عامة حول هذا الرضيع أو ذاك، ولا تشتمل على أية قيمة رمزية. إلا أن هذا لا يعني استحالة استعمال هذا النشاط الصوتي للطفل- داخل وعيه الجنيني- من أجل حاجات بدائية من ضمنها تناول الطعام. فالرضاعة تخلق عند الطفل إحساسا بالتماهي بين حركات الشفتين - بالضرورة من خلال وقع أنفي - وبين الطعام وبين ثدي الأم .إن هذا الترابط البدائي بين الطعام وبين الثدي والتمفصلات الشفاهية الأنفية قد يفسرا لنا ميلاد رمزية صوتية شفاهية أنفية بالإحالة على مفاهيم أساسية عند الطفل، أو ذالك المجموع المفهومي البدائي غير المتميز الذي يمثله الحقل الدلالي للطعام-الثدي-الأم..

فمن جملة التمارين الصوتية عند الطفل هناك الانفتاح -الانغلاق الذي تحتل فيه القناة الفمية الموقع الأساس: تا-تا-دا-دا-كا-كا-جاجا-نا-نا-ما-ما(حيث إن اختيارنا للرموز الغْرافية هو اختيار اعتباطي حيث الغاية من التناوب بين ت ود هو توضيح غياب الثبات والانتظام للقيم الصوتية، ذلك أن الأمر لا يتعلق بفونيم).

فبما أن هذه الاختلافات الصوتية مرتبطة فيما بينها داخل وعي الطفل بحالات انفعالية وبرغبات احتجاج ورضا، فستكون هناك نقطة انطلاق لخلق أولى حالات التواصل كلما تعرف المحيط على هذه الآثار وتصرف بشكل يتطابق معها من أجل خلق تبادل ممكن. إن الطفل يصل إلى مرحلة الإشارة التي تُعد مبدئيا مشتركة مع مجموعة كبيرة من الحيوانات. ولن أتوقف طويلا عند مشكلة التواصل الحيواني لأكتفي بالإشارة إلى أن الألسنة الأكثر تطورا لبعض الحيوانات (النحل والنمل

والدلفين والرئيسات الكبيرة) تشكل أنساقا رمزية برموز شاملة غير قابلة للتقسيم ولا وجود للتمفصل المزدوج (وهو ما لا يعني غياب الطابع المركب لبعض الملفوظات ووجود بينة تركيبية، تلك التي تعثر عليها عند النحل). ولقد حافظ النوع الإنساني طوال تاريخه إلى حدود المراحل الأكثر تطورا على هذه على العناصر الرمزية الشاملة، ويمزج الفرد طوال كل حياته بين آثار هذه التعبيرية الرمزية في تواصله اللساني المبنين (الحقن، النقر، التنهد السعل القصدي...).

ومن المعروف أن الشامبانزي قادر على محاكاة الطفل في تطوره، إلى حدود المرحلة السابقة على اللسان المعبر عنها من خلال التعبيرية الرمزية، وعند هذه المرحلة الدقيقة يتوقف، ففيها يبدأ الكلام الممفصل. ولا يمكن لأي تدريب أن يقوده إلى تجاوز هذا الحد. فهل يمكن القول في هذه الشروط إن تعلم اللغة مبرمج جينيا عند الكائن البشري؟ لن أدخل في تفاصيل هذه القضية هنا، وسأكتفي بترديد ما قلته في مكان آخر بأنني أعتبر هذه البرمجة أشمل من مجرد الإحالة على ملكة التعلم واستعمال لسان ما. إنها مرتبطة بقدرتنا على ممارسة ألعاب معقدة. إنها مظهر من مظاهر ملكة متطورة للتجريد.

فلا شيء في التواصل الحيواني يمكن أن يساعدنا على فهم سر التطور الذي سمح للإنسان - وللإنسان وحده - تجاوز الحد الذي وقفت أمامه الرئيسيات عاجزة، وهذا ما تقدمه لنا محاولات الطفل الأولى حيث يمكن الإمساك بهذه الخطوة الحاسمة، وفي هذه المحاولة أيضا يجب البحث عن معالم الطريق التي سلكها أسلافنا وهم يحاولون ابتكار وسائل تواصلية مرنة ودقيقة متميزة بشكل جذري عن نباح الكلاب وزقزقة العصافير. يتعلق الأمر بوسيلة تواصلية تمكن من خلق عدد لامتناه من العلامات ولا تكتفي بعدد قليل من الرموز الثابتة (لا يتجاوز العشرة).

ترجمة : محمد الرضواني

Jean Vendryes: Le langage : introduction linguistique à l'histoire, Renaissance du livre,1921, p.6 -1

2-نفسه ص 18-19

3-انظر kristeva chap 22

4- جزء كبير من هذا النص هو التقرير الذي قدمه المؤلف إلى مناظرة prélangage التي جرت وقائعها في بوزونسزن سنة 1973 وأحيل على مقطع من لإرنست رينان حول أصل اللغات : " إذا كانت اللغة قد أُسندت إلى الإنسان كما لو أنها هبة من السماء بدون إرادته وخارجها فلن يكون للعلم الحق ولا الوسيلة البحث عن أصولها. أما إذا كانت اللغة هي جزء من الطبيعة الإنسانية وإذا كان خطوة وتطورا منتظما، سيكون من الممكن استنادا إلى استقراءات تلمس بداياتها الأولى".

صدر حديثا